



دَلَالَاتُ الْقَلْبِ فِي الْحِطَابِ الْقُرْآنِيِّ، قِرَاءَةً فِي الْأَبْعَادِ اللُّغَوِيَّةِ وَالسِّيَاقِيَّةِ
The connotation of the heart in the Qur'anic discourse,
a reading in the linguistic and contextual

² تاويريريت البشير
bachur.taoirirut@univ-biskra.dz

¹ فيصل بلحاج
fayssal.belhadj@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/06 تاريخ القبول: 2024/11/25 تاريخ النشر: 2024/12/20
Received:06/10/2024 Accepted: 25/11/2024 published: 20/12/2024

ملخص المقال:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي غير ذي عوج، وغايته التدبر في معانيه وألفاظه، فيهدف مقالنا إلى استحضار هذا التأمل من خلال البحث في مفهوم القلب الدلالي والسياقي، وذلك من أجل استخلاص الأبعاد المعرفية للكلمة، ضمن سياقتها اللسانية والتركيبية، والبحث في ماهية تكرارها بلفظها أو بأبعادها اللغوية والسياقية، ضمن منظور أدبي جمالي وبلاغي، بالإضافة إلى ظهور ملامح المدلول اللساني للكلمة والفهم المعنوي لها، وقد قاربنا بذلك الفرضيات المطروحة، وتوصلنا إلى جملة من الفوائد والتوصيات جمعناها في الخاتمة.

كلمات مفتاحية: دلالات، القلب، اللغوية، السياقية

Abstract

The Holy Quran was revealed in a pure Arabic language, and its purpose is to contemplate its meanings and words. Our article aims to evoke this contemplation by researching the concept of semantic and contextual heart, in order to extract the cognitive dimensions of the word, within its linguistic and structural context, and to research the nature of its repetition in its pronunciation or in its linguistic and contextual dimensions, within a literary, aesthetic and rhetorical perspective, in addition to the emergence of the features of the linguistic meaning of the word and its moral understanding. We have thus approached the proposed hypotheses, and reached a set of benefits and recommendations that we have collected in the conclusion.

Keywords: Semantics, heart, linguistic, contextual.

1. مقدمة

لما خلق الله الإنسان كرمه بصفات وسخر له هذا الكون لعبادته وإعمار الأرض، وحين كان الإنسان في هذه المرتبة من التكريم أوجد له مؤهلات تجعل منه مخلوقاً متفرداً، وأولها العقل، والسمع والإحساس والشعور، فالإنسان من صفاته الفرح والحزن، والصبر والجزع، والتفكير، والقدرة على الإبداع، هذه المكاسب البشرية لم تكن لتوجد لولا أن خلّق فيه أجهزة مزودة ببراعة التقنيات الفريدة، التي جعلته، يكون خليفة في الأرض، ومن التكريم أن خلق له السمع والبصر، والفؤاد، وهذه الأجهزة تحكمها أدوات غاية في الإتقان، وهي العين والأذن، والدماغ، والقلب، وغيرها من الأدوات فسبحان من خلق وسوّى، والخطاب القرآني لا يذكر هذه الأدوات والأجهزة بخطاب علمي، وإنما يُوردها بخطاب هداية وتفصيل وتشريع وأحكام، والتّصّ القرآني جاء بلسان عربيّ، فلا تجد لفظاً إلا وقد وُضع موضعه السليم، لا بُس فيه، وجعل الهداية في تديره، وفهمه في تحليل معانيه ومقاصده، ولا ريب في أن نجد التّرادف والتّضاد في كلام الله، الذي لم يكن إثراءً أدبيّاً أو ترفاً لغويّاً وإنما عن قصدٍ و بيانٍ، حتّى إذا وقفت عند دلالة اللفظ وسياقه أخذك معناه إلى أبعاد مختلفة، ومشارب متعدّدة، وحسن نظرٍ يفضي إلى دلائل خفية تُوصِلُ بصاحبها إلى الحقّ، وتبتعد به عن الزلات والمغالطات، وهذا كان الدّافع لكتابة هذا المقال، لنستعرض هذا الفهم الذي نراه له أهميّة في مسألتين: أولاً هي ما الغاية من استخدام لفظ القلب بأصنافه المختلفة؟ وثانياً كيف يمكن أن يحمل مدلول القلب معنى مختلف عن ملفوظ يقاربه في الدلالة أو الهيئة؟، لعلنا نصل إلى الغاية من هذا البحث وهي أنّ الخطاب القرآني يستعمل كلّ لفظ ضمن نطاق الدلالة والقصد، وكلّ استخدامٍ لمردفٍ أو طباقٍ إنّما غايته، زيادة اللفظ الأول وضوحاً، ولا يمكن أن نفهم نصّاً بمعزلٍ عن سياقه، وقمنا بالاستعانة بكتبٍ منها القاموس المحيط للفيروز آبادي، والتّعريفات لابن جني، وبعض التّفسير، منها مفاتيح الغيب للرازي، والتّحرير والتّنوير لابن عاشور، وقد اتخذنا في هذا منهجاً وصفيّاً تحليليّاً لأنّه المناسب لهذا البحث، ومنهجية البحث كانت بمقدمة عن الموضوع استعرضنا الحاجة لطرح القضية وإشكالية البحث، وفي المبحث الأوّل ذكرنا أبعاد القلب اللغويّة في عنصرين هما المعجم والدلالة، والمبحث الثّاني ذكرنا أثر السياق في تمييز أصناف القلوب، صمّن عنصرين هما السبب والمُسبّب، وتصلنا إلى نتائج وتوصيات دُكرت في الخاتمة.

2. دلالات القلب اللغويّة في الخطاب القرآني:

1.2 أبعاد القلب المعجميّة:

جاء في القاموس المحيط " (ق.ل.ب) خالصة العقل، وقَلْبٌ حَوْلُهُ عن وجهه، والتّقلّب في الأمور؛ التّصرّف فيها كما شاء، قَلْبُهُ حَوْلُهُ عن وجهه، واطمئنّ له واستكنّ " (الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2003، ص156)، ومنه فالقلب هو خاصّة الإنسان، ومناط تديره، وسلامة إدراكه، ولهذا فنواة لفظه يلامس التّصرف في الأمور، بما تملّيه نفس الإنسان وقناعاته ومزاجه، فتراه مُترنّحاً لا يركن إلى أمرٍ، ولكن إذا فصل فيه كان عن دراية وقناعة، فإن كان قلبه صافيّاً نقيّاً جهّز نفسه لأداء الخير، وإن خالف ذلك، كان مردّ النفس الانغماس في الضلال، والبُعد عن جادة الصّواب، وعمل الجوارح كالألة التي تحتاج إلى الطّاقة، فالقلب مثل الكهرباء للألة، فلا تستجيب إلّا بحسب ما أملي عليها فعله، دون تحرّك، أو إزعاج، فالقلب مملِكٌ والجوارح جنودٌ، فلا يناقش الملك عن تصرّفٍ حتّى وإن كان مخالفاً للحقّ بعيداً عن مقاصد الخير ورضى الله عزّ وجلّ، ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في هذا الباب: " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ "، (صحيح مسلم،

1998، ص 1399)، وسميت بالمضغعة لصغر حجمها مقارنة بعملها وعمل باقي أعضاء الجسم، ومن المضغعة فعل (المضغعة) ؛ دلالة على لطفها والتقلب؛ " أي قدر ما يمشع، وعبر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية" (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح البخاري، 1985، ج1، ص128)، من أمور القلب العظيمة وفي ذلك آية من آيات الخالق سبحانه فمن كرامات الإنسان وفضل الله عليه هذا الجهاز الذي وإن كان له عملٌ بيولوجي وهو ضخُّ الدَّم في سائر الجسد ونقل الأكسجين، والمواد العضوية من أملاح معدنية وفيتامينات إلى جميع أجهزة الجسم، من أجل العمل المستمر لها، إلا أنه له دور في تحديد سلوك الإنسان تجاه أخيه أو خالقه، فله دورٌ روحانيٌّ متعلق بحياة الروح وتلك أمانة أودعها الله في الإنسان هي حرية القرار حيث قال الجرجاني: " القلب مصطلح على اللطيفة الربانية بالقلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع من الصدر، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان" (الجرجاني، التعريفات، ص205)، ومردُّ عمله خيراً كان أو شراً، فاستقامة الإنسان من استقامة قلبه، ولا يصلح عمل فردٍ مالم يكن قلبه نقيّاً طاهراً ولهذا نجد قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"، (المنذري، صحيح الترغيب والترهيب، 2000، ج3، ص319)، فإن استقام لسانه بكلمة الإخلاص وقر التوحيد في قلبه فأثمرت جوارحه بالاستقامة عن القلب أنه موطن الشغف والمحبة والإحساس والمشاعر، والفصل بين مراتب الناس من حيث المراتب ، وذكر الكفوي في كتابه الكليات سبع طبقات للقلب نذكر بعضها ومنها الصدر؛ وهو محل الإسلام ومحل الوسواس، والحفظ والذاكرة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:125]، والقلب وهو محل السمع والبصيرة، والشاهد قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴾ [الحجرات:7]، والشغاف وهو محل محبة الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف:30]، والفؤاد ومحل رؤية الحق، والسويداء، وهي محل العلوم الدينية، ومهجة القلب، وهي محل تجلّي الصفات، وحبّة القلب، وهي محل محبة الحق،" (الكليات، ص 494)، " كما أنّ لهذه اللطيفة الربانية الجانب الثاني وهو العاطفة والوجدان من شهوات وهوى، فللقلب جانبان هما العقل وهو المانع، والهوى وهو المريد، وينتج عنهما الإرادة التي يتولّد بعدها العزم، فيصدر القلب الأوامر للأعضاء بالجسم، كما تنفذ تلك الإرادة بعد تداولها بين العقل والعاطفة، لأنّه إذا كان سليماً أدرك الحقائق، وحفظها كما ينبغي" (فتح البيان في مقاصد القرآن، 2001، ج9، ص115)، ويمكن أن نخصي معاني القلب في ثلاثة معاني أولها: العقل ومحلّ التدبير، وتركبة النفس وإعمال الضمير، وتجنّب الوقوع في الأهواء، والذي " يتذكّر إذا سمع كلام الله، وإلا فوجوده من عدمه سواء؛ لأنه معطل عن جانبه المعرفي والإرادي، قائم بدوره الجسماني فقط، وهذا شائع في استعمالات العرب في حال من لا يتعظ"، (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2006، ج17، ص23)، والشاهد قول الرحمن: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:37]، وثانيها: النية: قد يعبر عن القلب بالنية وفي هذا قول للغزالي: " هو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب " (أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين 2005، ج3، ص4)، وثالثها جوهر الإنسان مؤمناً كان أو كافراً وفي هذا حديث طويل في النصّ القرآني عن صفات قلوب الكفار ولعلّ أبرز ما يمكن أن نستشهد به قصّة الذي أماته الله مائة عام ثم

بعته وأوصاه المولى أن يذبح طائراً ثم يُعلّق كلّ جزءٍ منه في جبلٍ، وهذا ليُطمئنَّ قلبه بالإيمان، ومنه معني القلب هي: (التّقلّب، وخلاصة التفكير، والعقل، والإيمان، والتّوبة، واليقين، ومصدر السلوك).

2.1/ أبعاد القلب الدلالية:

عند اقتضاء الفهم المعرفي للكلمة أو المصطلح علينا أن نفقّش عن الأضداد والتّرادف الخاصّ بالكلمة واستعمالاتها في سياقات مختلفة، أمّا إذا كان هذا البحث في فهم تشكيلات اللفظ في خطاب معيّن، فإنّك تبحث في أنساق الكلمة وأبعادها، فما بال النصّ إن كان قرآنًا عربيًّا غير ذي عوجٍ، والنصّ القرآني حافلٌ بالتّرادف ولكن ليس تطابقًا في المعنى بل لأنّ المراد منه له فهم خاصٌّ به، ونرى الخطاب القرآني يستخدم ألفظ (القلب، والفؤاد، والصّدر) وكلّها ألفاظٌ تميل في الفهم الظّاهري؛ أي العضلة الموجودة في الجناح الأيسر من الإنسان ولها دورها البيولوجي والحيوي، ولكن عند البحث عن المفهوم الدلالي للكلمة كالتالي: أمّا الفؤاد فقد ذُكر من " افتأد اكتوى، وافتأدوا أوقدوا نارا والتّفؤدُ التّحرُّقُ " (الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 2003، ص117)، ويُعدّ الفؤاد خالص القلب وجوهره، ويحمل معنى؛ " الحمى وشدة الحرارة " (ابن دريد جمهرة اللّغة، 1987، ج"، ص243)، وحين استقرأ المعاني البياني للمقام في النصّ القرآني حين أسرد قصة موسى عليه السلام وهو رضيع، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:10]، نفق عند مقام الشخصية المحورية في القصة وهي أم موسى عليه السلام، ففي أعلى درجات الخوف والرّهبة استخدم القرآن لفظ الفؤاد، وفي أعلى درجات الثّقة بوعده المولى عز وجل بإرجاعه لها استعمل لفظ القلب المناسب للمقام المذكور، ومنه فلفظ الفؤاد أستخدم للدلالة على معنى العقل واللّب، والفراغ مجازي ومعناه فراغ العقل من أمر كان مؤمنا به " فالأمر المتفق بين القلب والفؤاد هو المعنى السطحي الظاهر المعبر عن الوجدان، والمختلف بينهما هو من حيث مقام النصّ ونسق مدلوله، وبللمسة بيانية من الآية نجد القلب هو الرّبط عليه وتوثيقه من أن يضعف كما يشد العضو الوهن؛ أي ربطنا على قلبها بخلق الصّبر فيه " (ابن عاشور، التّحريم والتّنوير، 1984، ج20، ص82) بعد أن اكْتُوتُ وخزنتُ وافتأدتُ حين ألقته في اليم، ولو تتبعنا المعنى البياني للفظ الفؤاد في كلام الولي الحميد لوجدناه الأقرب إلى العقل والإدراك، حدثنا أحمد بن عيسى التميمي قال: ثنا سليمان بن عمرو بن سيار قال: ثني أبي، عن سعيد بن زربي عن عمرو بن سليمان، عن عطاء، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى " فجعل نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي " (الطّبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، 2001، ج22، ص508)، إذّا الفؤاد هو سبيل اليقين والبعد عن الرّيف، والإدراك المواكب للعقل المفكّر، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120]، والفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى العقل من تحصيلها، ووصل فيها إلى الحق، وأسقطها على القلب ليُدِيرَ ويُدِيرَ حركة الحياة "، (أحمد متوّلّي الشّعراوي، تفسير الشّعراوي، 1991، ج5، ص198) إن المعنى الأقرب للفظ الفؤاد هو الرّكون إلى العقل والاستقرار عند الشيء بعد أن أدركه الإنسان بحواسه، وفي هذا الخطاب الموجه للمصطفى صلى الله عليه وسلم استقرار على الحق الذي هو فيه، وأن لا ينخدع بأقوال الناس تجاهه، فالدلالات التي يحملها لفظ الفؤاد دلالات حسية وجدانية معبرة عن الجانب الحزين المؤلم، والشّاهد في ذلك هو اللفظ المتكوّن من الأحرف (ف . ع . د . ا)، فإن هذه الأحرف هي أصوات وعند تركيبها في لفظ معين نجدها تطابق معاني الحرقه والحرارة، ومثاله

نحو: (دِفءٌ)، (مِدْفأةٌ)، (تَفَادٌ)، فهو مناسبٌ للمقام الأمل والحزن والاحتراق والشوق، ومنه قول المولى عز وجل حين وصف حال أهل النار في قوله: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى آلِ آفٍ دَوٍّ﴾ [الهمزة:7]، وقد أختصَّ الفؤاد بالرؤية، والفعل رأى في كلام الله هو دعوةٌ لإعمال العقل والبحث والتحري وفي هذا قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11]، وقد قيل فيها قولين: "أم الأول فمن شدَّ كذب فقال: ما أنكر الفؤاد ما رآته العين، من خفف قال: أراد ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، بل صدقه الفؤاد الرؤية، فالفؤاد محلٌّ لرؤية الحق، أما القلب فخصَّ بالبصيرة" (ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 2003، ص 1362)، ومنه فقد أختصَّ الفؤاد بالتكذيب والتصديق، أما عن لفظ الصدر فالهداية تكون بانسراح الصدر لهذا الدين السليم، والله يشرح صدر من يشاء من عباده لهذا الدين قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:125]، أي يرشده لتعاليم، ويصِّره عن نواحيه، وينفتح إلى محبة الله ورسوله، والصدر لا يشرح على وجه الحقيقة بل كناية عن الهداية، ومجاز مرسل قرينته محلبة، أي محل الهداية، وفي المقابل أتى بالتقيض وهو الضلال فيكون صدره ضيقًا حرجًا إذا اختنق، فلا يستطيع التنفس، وإذا تدبَّرنا الآية وجدناها مُلئت بالبلاغة والبيان والبدیع مكثف غزير ففيها تشبيه ومجاز وكناية، ومقابلة، وتضاد، ويذهب الرأزي إلى أن الإيمان موضعه القلب، والإنسان هو المخير في ذلك، والتوفيق من الله إذ يقول: "لفظها أيضا يدل على الدليل القاطع العقلي الذي في هذه المسألة، وبيانه أن العبد قادر على الإيمان وقادر على الفكر، فقدترته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية، فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلا من الكفر أو الكفر بدلا من الإيمان، إلا إذا حصل في القلب داعية إليه:" (فخر الدين الرأزي، مفاتيح الغيب، 1981 ج 13، ص 146)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1]. الصدر موطن الهداية، وهي مساحة جعلها الله لاستخلاص التجارب الإنسانية من اتباع الحق والابتعاد عن الضلال، وفي مسألة الهداية باب واسع، فمن شرح صدره مقبلاً غير مدبر مطوعاً نفسه، باحثاً عن الحق والرشد، أتبعه الله بالهداية، فكان لمحبة الله أقرب، ولطاعته أوجب، أما إذا أعرض وانصرف عن كلام الله وآياته، صار صدره ضيقاً حرجاً، لا يكاد يفقه في الدنيا شيء وهذا كالأنعام بل هو أضل.

3 دلالات القلب السياقية في الخطاب القرآني:

السياق هو المقام، عند أهل البلاغة، وعند ابن فارس: "أن (السين و الواو و القاف) أصل واحد، و هو حدو الشيء، ويُقال ساقه ويسوقه سوقا والسيقة ما استيق من الدواب ويُقال سقت إلى امرأتى صداقها وسقته" (ابن فارس مقاييس اللغة، 1979، ج 3، ص 117)؛ فهو المسلك والسبيل، أما عند أهل البلاغة القرآنية كأبي عبيدة هو: "الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته" (أبو عبيدة، مجاز القرآن، 1988، ج 1، ص 19)، وعند الحديث عن أصناف القلوب في السياق القرآني أو الوصف التعبيري له؛ فقد وردت هيئتها في خمس وثلاثين موضعاً في كلام الله تعالى، بين من خلالها أصناف حسب السياقات التي تحدث فيها عن أقوام بعينهم وما يحملونه من أحقاد وضغائن جعلتهم يمتازون بهذه الأحوال من الوجدان النفسي أو في ذكر تبتعات المعاصي على القلب وآثارها عليه، أو في سياق التعبير عن صفات قلب المؤمن الصادق النقيّ، ووجدنا هذه الصفات على قسمين؛ أما الأول فهو ضمن سياق السبب، وفي هذا السياق عبّر الخطاب القرآني عن هيئة هذا القلب في نطاق الفطرة التي نشأ

عليها أو من خلال تراكمات الخير أو الشرِّ الكامنة فيه، والتي جعلت منه يتَّصف بصفة معيّنة أو يكون على شاكلةٍ دون غيرها، والسيّاق الثّاني هو سياق المسبّب أو الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، وهو نتيجة لعقاب الله على أقوامٍ كانت قلوبهم جزاءً لأعمالهم الخبيثة أو ثواب المولى عزّ وجلّ عن أقوامٍ كانت قلوبهم فيها بذرةً خيرٍ نظير أعمالهم الحسنة.

1.3 سياق السبب: وجدنا في النصّ القرآني ما تلذّد إليه نسمات التأمل، وتَشجّي نحوه عوالم التفكير، وقصدنا بالسبب استعراض جوهر القلب على وجهين كما استخلصناه ولمسناه أثناء تفحص كلام الله الذي لا يأتيه الباطل ولا ينحو نحوه مخلوق إنسٍ كان أو جاناً حتّى لو اجتماعاً، أمّا الوجه الأوّل فكان في أسباب الخير التي اجتمعت في الإنسان المؤمن التائب الذي يرنو إلى الصّلاح والفلاح، ويسعى إليه جاهداً، وينصرف عن المعاصي والفسوق، وإن وقع في الزّلل تاب وأناب وسرعان ما رجع إلى الله، ويؤخّذه إيمانه إلى مراتب اليقين والتّمسك بغرّة الله الوثقى فلا ينقص منها ولا يحيد وهو على خمس صفات:

1. القلب المطمئن: ورد عند معرّض حديثه عن أهل الذّكر ومنهم قُراء القرآن وحفظته، هذا العمل الصّالح أدّى بقلوبهم إلى السّكينة والوقار، والشّعور بالأمن قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:18]، ويرمي القلب المطمئن إلى البرِّ والإحسان والتّقوى.

2. القلب المنيب: وهو القلب الذي جاء من وراء الخشية والخوف من الله الجليل، والذي يتّسم بصفة الإنابة وكثرة التّوبة إلى الله تعالى: ﴿مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:33]، ومخافة الله طاعة حافزٌ للرجوع إليه.

3. القلب الوجل: هو القلب الذي يتّسم برهافة الحسّ كلّما ذُكر اسم الله تعالى، والفعل وجلّ جاء في معنى الخوف الإيجابي، الذي يؤدّي بالعبد إلى اليقين بالله والاستجابة لأوامره قال الباسط: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2].

4. القلب السليم: هو الذي يتّصف بالتّقاء والطّهارة سواء من الأمراض التّفسية كالحقد والضّغينة، والكراهية، أو سليماً من الظلم على النفس أو على الغير قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89].

5. القلب الّين: ذاك القلب الذي ينبض بحياة الإيمان، ويتأثّر مقشعراً جلده عند سماع الذّكر، وتلدغ قلبه نفحات آيات الله البيّنات، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابِنًا يُقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءْ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23].

فهذه الأوصاف جميعاً كانت في سياق السبب الصّالح المؤهّل لأداء الخير، وحبّ الله وطاعته والإنابة إليه، والتأثّر بكلامه سبحانه وهي تحمل معاني الرّافة والرّحمة والسّلامة الرّوحية والسّكينة؛ إذ كان سبباً في أن يسعد هذا الإنسان في الدّنيا والآخرة، وفي نفس السيّاق نجد الوجه الشّاحب والجانب السّلب للقلب الذي يجعل من الإنسان متعجرفاً ظلوماً غشوماً وهي كذلك على ثمانية أحوال:

1. القاسي الغليظ: الشدة والغلظة يُعبّر عنها بالقساوة، هي الجارحة التي جعلت من الإنسان لا يسمع ذكر المولى عز وجل، وبات قلبه صلباً قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:22]، وهذا المعنى فيه جانب نفسي، ولمسةً بيانيةً نلمحها في مدح المولى عز وجل للرسول صلى الله عليه وذلك في جمع الناس من حوله باللين والرحمة قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْعِفَّةِ لَأَخَذُوا بِأَعْقَابِهِمُ بِالْحَدِّ وَأَخَدُوا عَصِيَّتَهُمْ فَالْأَفْئِدَةُ كَثُفَتْ أَفْئِدَةً عَلَى اللَّهِ بَٰلِغَةً إِنِّي لَأَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِمَّا يَدْعُونَ بِهَا وَلَٰكِن لَّيْسَ مِنِّي عَفَا وَمَن يَفْعَلْ فَإِنَّهُ يَخُذْهُمُ اللَّهُ فِي سُلْطَانٍ غَلِيظٍ مُّطَبَّعٍ وَلَا لَٰكِن يَأْمُرُ بِكَ بِالْإِيمَانِ وَلَا يَأْمُرُ بِكَ بِالْكُفْرِ فَإِنَّكَ إِن كُنْتَ هَٰذَا قَوْلًا مَّحْذُومًا فَذَرْهُ وَلَا يَأْمُرُ بِكَ بِالزُّنْحِ خَلَاكَ فَمَدَّ طَائِفَةٌ مِّنَ الْيَٰسِقِ الْيَهُودِ لِيُلَاقِيَنَّكَ فَذَرْهُمْ هَلُمُّوا إِلَى اللَّهِ مَوَدَّةَ النَّاسِ وَخِشْيَةَ اللَّهِ رَبِّكَ أَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا هُوَ غَٰلِبٌ وَلَا يَشْعُرُونَ أَتُؤْمِنُونَ بِالْغُلُوبِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]، وهذا حال من يقرأ كلام الله ولا يتدبر معانيه، وهذا القلب كمثّل شيء عليه غلاف لا يُدرّك باطنه من ظاهره قال المولى عز وجل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:88].
2. القلب المقفل المغلف: هو المغلق بإحكام لا يتسلل إليه نور الله، ولا ضوء شمس الإيمان، فهو قد صدّ لجميع ما من شأنه أن يرأف قلبه، ويصغي إليه سمعه، ويتدبر بذلك عقله، فأضحى إنساناً خبيث النفس لا يُأني منه خير قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَفَلَا يَبْصُرُونَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ أَتُؤْمِنُونَ بِالْغُلُوبِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]، وهذا حال من يقرأ كلام الله ولا يتدبر معانيه، وهذا القلب كمثّل شيء عليه غلاف لا يُدرّك باطنه من ظاهره قال المولى عز وجل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:88].
3. القلب المشمّز: هو المنزعج من شيء ولكن كان هذا الإزعاج من ذكر المولى عز وجل، أو من سماع الآيات البينات من الفرقان الحكيم، قال جلّ في علاه: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِّن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:45].
4. القلب المنكر: هو الجاحد الكافر بأنعم الله، وهو الإنسان الذي أداه نكرانه إلى الكفر بيوم الحساب والجزاء قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا وَنِدًّا وَهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النحل:22].
5. القلب المغمور: ويُقصد به الغافل عن الحقّ الجاهل به، السفهية التائه في بيداء الوهم، هذه الخصال نجدها في الإنسان الذي لا يستخدم عقله في أبسط شؤون حياته، يعيش كالبهائم، في ظلمات ليس بخارج منها قال سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ مُّغْمُورَةٌ ۖ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ كَلِمَاتٍ ۚ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [المؤمنون:63].

6. القلب المريض: ليس مرضًا جسديًا إنما نفسٌ حاقدةٌ حاسدةٌ، التي تفوح منها رائحة الكراهية والرجسية، ولا يرى الناس إلا سيّدًا ومسودًا، يتمنى لو أنّ الناس جميعًا تحت تصرفه، وهذا بسبب كذبهم على الله وعلى الناس وعلى أنفسهم قال جلّ شأنه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:10].
7. القلب اللاهي: من اللّهُ واللّعب الذي يؤدّي بصاحبه إلى الغفلة، والتزوع إلى الآثام، والانصراف إلى ملذّات الحياة الدّنيا وزينتها، قال جلّ شأنه: ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:3].

والملفت أنّ جوانب الخير ذكر خمس أصناف بينما في جانب الشرّ ذكر ثمان أصناف، وسنأتي إلى ذكر المسبّب، ونقصد به أنّ أعمالهم المختلفة والمداومة عليها بعث الله فيها جوانب الحُسن أو السّوء.

2.3 سياق المسبّب: خلق الله الإنسان، وأودع فيه دواعي الخير ودواعي الشرّ، وبها ينجو من العذاب فيكون شاكِرًا أو هالِكًا ويلقى مصيره من العذاب، قال جلّ في علاه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3]، فمن جزاء الدّنيا أن يقذف الله في العبد سُبُل الرّاحة الرّوحية والنفسية التي تبعثه على الصّلاح، فيكون قلبه خاشعًا طيبًا، وإن كان دون ذلك قذف في قلبه نوازغ الشرّ حتى يجمع الآثام على قدر عمله، فيكون قلبه في رعبٍ دائمٍ وغلظةٍ؛ فالمسبّب القصد منه أنّ حياة القلب كانت نتيجة الحُسن العمل أو سُوءه، ووجدنا في كلام الله وجه الحُسن على خمسة أصناف.

1. القلب الرّحيم: والرّحمة لا تكون إلّا من لدنه سبحانه فهو الذي يقذف الرّحمة في خلقه، وعند اتّباع سبيل الحقّ والإيمان، جعل الله قلب ذلك العبد رحيماً بخلقه، وتتجلّى الرّحمة في الأنبياء والمرسلين، ومنهم سيّد الخلق عليه أفضل الصّلاة والتّسليم، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَءَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:27].
2. القلب الساكن الهادئ: وهو الذي يتّصف بحالة التّسليم لله تعالى في كلّ شؤونه، فهو المدبّر له، وهو الذي خلقه، فسلم له أمره، فيكون هذا جزاءً له على صبره، فيزداد إيماناً وتشبّهًا بصراط الله إذ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4]، وهذه الآية نزلت في يوم بيعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والهدوء في هذا المقام كان مرده الثّقة بالله تعالى ونصره المبين الذي سيكون بالفعل بعد فتح مكّة.
3. القلب الخاشع: والخشوع هو الخضوع لله تعالى بعد البرهان الرّبّاني الذي كان بالمعجزات التي نزلت على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أو آيات الله البينات، وفي هذا جزاءً لمن أسلم وجهه لله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد:16]، وغرض الأسلوب البلاغي الذي جاء في صيغة الاستفهام هو التحضيض والحث، و هو تجارة من الله للعبد الذي ينيب لله تعالى بعد اليقين الذي أصاب قلبه والقناعة التي توصل إليه.

4. القلب المعقود القوي: وهذا الوصف كان لأهل الكهف الذين امتحنهم الله ببلاء الحكام الظلمة، وفنتهم كانت في دينهم وعقيدتهم، فجزاء صلاحهم كان أن ربط الله على قلبهم بصدق عزمهم، فجعل قلوبهم قوية لا تخشى شيئا ولا تهاب إلا الله تعالى، إذ يقول القوي العزيز: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف:14].

5. القلب المخبت: وهو ولوج القلب إلى الرضى والاطمئنان، والتسليم لأمر الله، ولا يكن هذا إلا فضلا من الله وثوبا على ما منحهم من علم عرفوا به قدر ربهم قال النور: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:54].

ومن المسببات المؤدية إلى سواد القلب كعقاب من الله هي إيتان المعاصي جميعها بتفانٍ في السوء، ونجد هذا الصنف على ثمان أوجه، فكان الفعل سببا في ذلك والعقاب من الله نتيجة لما كسبت أيديهم وألستهم.

1. القلب المطبوع: وهو نوع من عقاب الله المعنوي أن يجعل في الإنسان طابعا لا يرى نور الإيمان، وحقيقة الإسلام، ولا يفقه في أمور الدين ولا الدنيا، قال الولي: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:100].

2. القلب المكنون: هو فاقد البصيرة لا يرى الحق، فهو يشبه الأنعام في تصرفاته، ومن بين أدوات الحق الذكر الحكيم، فهو إذا سمعه لم يفهم معانيه، وإذا أبصر أنعم الله انصرف قلبه إلى الزين والجدال العقيم قال المتين عن هذه الفئة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:57].

3. القلب المختوم المحسور: هو الذي أُحْجِمَ بالتفاق والشرك، فلا يمكن أن يتسلل إليه الإيمان، فخرج عن نطاق رحمة الله، وبات عذابه في الدنيا أمر محتوم ولا عذاب الآخرة أشد وأبقى يقول القهار: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7]، والمنعكس الشرطي لذلك، أن يعيش في حسرة دائمة يتمنى أن لو كان مؤمنا قال الجليل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ

كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ [آل عمران:156].

4. القلب المرعوب: عذاب الله متنوع على أهل الشرك، منه ما هو جسدي وآخر نفسي عاطفي، والمشاعر مكنها القلب، فالكافر في عذاب دائم حتى ولم يُظهر ذلك للناس، فهو يعيش في قلق ورهبة وخوف، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:151].

5. القلب الزائع: وهو قلب كان في حيرة أيكون من أهل الإيمان، أو من أهل الشرك، فوقع اختياره على موضع الكفر، فمال عن الحق وحاد عن أصله، فراغ فكان عقابه، أن أدخله الله في ظلمات ليس بخارج منها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصّاف:5].

6. القلب الغافل الأعمى: لقد ابتعد عن ذكر الله وعن استحضر عظمة الله في عمله فجعل الله قلبه غافلا عن أداء مهمته، وهي إيقاظ الضمير وجعله قريبا من الله فلا يتعد فيضل عن سبيل الله إذ قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:28].

وهذا القلب يكون عادة أعمى لا يُبصر الواقع كما هو قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:46].

7. القلب المرتاب المنافق: هو الذي يُظهر ما لا يُطن، فكان قلبه في نفاق لا يرى الحق فيتبعه، ويستحضر الباطل فيجعل له سبيلا ويهدي للناس ما لا يُخفيه، فجزأوه أن جعله الله في حيرة وارتباب يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:45]، وعن النفاق قال عز وجل: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:77].

8. القلب المصروف عن الحق المفرق: كان جزأوه أن خرج من دائرة العلم إلى الجهل ومن نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، فلا بصيرة لهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:127]، وهذا النوع من الناس ليسوا على كلمة سواء لأنهم انصرفوا عن الحق

وتأهوا في بيداء الوهم، وهذا كذلك عقاب من الله تعالى: ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

الخاتمة:

وبعد الفراغ من الفهم اللغوي للقلب في الخطاب القرآني، واستخلاص مدلوله البلاغي والبياني والتركيبى الموجود ضمن سياقه، نستنتج بأن القرآن قد نوع من ذكر صفات القلوب بحسب ما أملت السياقات المختلفة، منها سياق الدلالة، وسياق الموقف. ويمكن من خلال ما سبق أن نستخلص الفوائد التالية:

✓ أصناف القلوب جميعاً لا تصلح إلا بالتفكير السليم، وإعمال العقل ولا تفسد إلا باتباع الهوى، والتّصّ القرآني حافل بمدح أولي الألباب والعقول الرّاجحة التي تجعل الإنسان يحمل أمانة الخير والبذل، ولعلّ علاج كلّ نقيصة هو وضعها في ميزان العقل فإن كان له قلب واعٍ وعقل راجح لم يأخذ بأحسن منها، فمفتاح كلّ خير، وتصديّة كلّ شرّ هو فقه العقل واستخدامه، فيأتي القلب إما مُجْبِلًا على الفضيلة أو مقرونًا بالزّذيلة، والله إمام معيّن لذلك القلب فيحسن دوره، أو عقاباً له فيزداد سوءاً إلى سوءه قال الشهيد: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: 79].

✓ كلّ سياقٍ في السّبب جاء على نسق الخير والشرّ، إمّا فاعلاً وهي أنّ قلب الإنسان يُجَدِّد وجهته شقيّاً كان أم سعيداً، وإمّا مفعولاً به فيكون محلّ عقاب من المولى عزّ وجلّ نظير أعماله السيئة أو ثوباً مقابل عمله الصّالح.

✓ والملفت أيضاً أنّ تقسيم السّبب في نطاق الخير كان في عشرة مواضع، خمس منها في السّبب تُقابلها خمس في المسبّب، وإذا ألقينا نظرة إلى جانب السّوء وجدنا تقسيماً عدلاً ثمانية تُقابلها ثمانية سبباً ومسبباً.

✓ ووجه الحسن في كلام الله أنّ لا ترادف فيه إمّا هو استخدام كلّ لفظ ضمن نطاق فهمه الدلاليّ أو السياقيّ، فلم نر الاختلاف في المعنى حين يكون طباقاً وإمّا حينما يكون ترادفاً وهذه خاصيّة بلاغيّة اختصّ بها أسلوب القرآن دون غيره فالقلب والفؤاد واللّب والصّدر، حتّى وإن اجتمعوا في قالب المعنى الضيق وهي خاصيّة الإنسان الشعوريّة والفكرية، إلّا أنّها تختلف تماماً حين فهم معاني الآية ومغزاها، وموضع الكلمة في سياقها.

✓ لا إطناب ولا تطويل في كلام الله فكلّ وصفٍ أو تصنيفٍ أو ذكرٍ للترادف أو التّضادّ إمّا يكون في مقام حدّدته معاني الآية وسياقها وحال المخاطب فيها، وتختلف عن نظيرتها في آية أخرى.

أما ما يمكن أن نُفيد فيه الباحثين من وراء هذا المقال من وصايا هي:

- ✓ الدراسة اللسانية للقرآن الكريم تختلف عن الدراسة الأدبية، فكل باحث في كلام الله عليه أن يُراعي الفهم المعجمي والدلالي، وألا ينجس وراء الفهم الدقيق للكلمة من المعاجم دون الالتفات إلى موضعها من كلام الله ومرادفاتها ضمن سياقات مختلفة.
- ✓ الدراسة اللغوية لكلام الله يجب أن يوضع لها مُعجم خاص بها يمكن أن نُطلق عليه معجم ألفاظ القرآن ضمن دراسة حدائتيّة توصل فيها البحث اللغوي إلى معارف مختلفة لم تكن معهودّة من قبل.
- ✓ الدراسة في أنساق الخطاب القرآني ثقافيًا ومعرفيًا حاجة مُلحّة لما تُملّيه الحداثة وما بعدها، ففهم النص القرآني لا يكون باجترار أقوال علماء اجتهدوا كلّ حسب ظروف زمانه وما دعت إليه الحاجة في وقته، وعليه لابدّ من إعادة النظر في فهم النص القرآني ضمن دواعي العصر الذي نُعايشه.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
2. ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح عبد الله ابن محسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة مصر، ط1، 2001.
3. ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984، تونس، تونس.
4. أبو بكر ابن دريد، جمهرة اللّغة، تح رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 1987.
5. أبو محمد زكي الدين المنذري، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، ط1، 2000، الرياض، السعودية.
6. أحمد ابن أبي بكر القرطبي، أحكام القرآن، تح عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار الرسالة، ط1، 2006، بيروت، لبنان.
7. أحمد ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح البخاري، دار الناشر، القاهرة، مصر، ط1، 1985.
8. أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1، 1979، بيروت، لبنان.
9. أحمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، ط1، 1991، القاهرة، مصر.
10. أيوب ابن موسى أبو البقاء الكفوي، الكليات، دار الرسالة، ط2، 1998، بيروت لبنان.
11. الشّريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلميّة، ط1، 1983، بيروت، لبنان.
12. صديق حسن ابن خان ا، مقاصد البيان في تفسير القرآن، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
13. عمر ابن المثنى أبو عبيدة، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، ط1، 1988، القاهرة، مصر.
14. فخر الدّين الرّازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط1، 1981، بيروت لبنان.
15. مجد الدّين ابن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح يوسف محمد الباقي، دار الفكر، ط1، 2003، بيروت لبنان.
16. محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، دار ابن حزم، ط1، 2005، بيروت لبنان.
17. مسلم ابن الحجاج، صحيح مسلم، دار الأفكار الدّوليّة، ط1، 1998، الرياض، السعودية.

References:

- al-Qur'ān al-Karīm bi-riwāyat ḥfṣin 'an 'āṣimin.
1. Ibn al-Jawzī, Zād al-Musayyar fī 'ilm al-tafsīr, Dār al-Kitāb al-'Arabī, Bayrūt, Lubnān, Ṭ1, 2003.
 2. Ibn Jarīr al-Ṭabṛī, Jāmi' al-Bayān fī Ta'wīl al-Qur'ān, ṭh 'Abd Allāh Ibn Muḥsin al-Ṭabṛī, Dār al-Hajr al-Ṭabṛī wāl-nashr, al-Qāhirah Miṣr, Ṭ1, 2001.
 3. Ibn 'Ashūr, al-Taḥrīr wa-al-tanwīr, al-Dār al-tawṣīyih l-nashr, Ṭ1, 1984, Tūnis, Tūnis.
 4. Abū Bakr Ibn Durayd, Jamharat al-lughah, ṭh Ramzī Munīr Ba'labakkī, Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, Bayrūt, Lubnān, Ṭ1 1987.
 5. Abū Muḥammad Zakī al-dīn al-Mundhirī, Ṣaḥīḥ al-Ṭabṛī wāl-taḥrīb, Maktabat al-Ma'ārif, Ṭ1, 2000, al-Riyāḍ, al-Sa'ūdīyah.
 6. Aḥmad Ibn Abī Bakr al-Qurṭubī, Aḥkām al-Qur'ān, ṭh 'Abd Allāh Ibn 'Abd al-Muḥsin al-Ṭabṛī, Dār al-risāl, Ṭ1, 2006, Bayrūt, Lubnān.
 7. Aḥmad Ibn Ḥajar al-'Asqalānī, Fath al-Bārī fī sharḥ al-bukhārī, Dār al-nashr, al-Qāhirah, Miṣr, Ṭ1, 1985.
 8. Aḥmad Ibn Fāris, Maqāyīs al-lughah, ṭh 'Abd al-Salām Muḥammad Ḥārūn, Dār al-Fikr, Ṭ1, 1979, Bayrūt, Lubnān.
 9. Aḥmad Mutawallī al-Sha'rāwī, tafsīr al-Sha'rāwī, Dār Akhbār al-yawm, Ṭ1, 1991, al-Qāhirah, Miṣr.
 10. Ayyūb Ibn Mūsā Abū al-Baqā' al-Kaffawī, al-kalīyāt, Dār al-risāl, ṭ2, 1998, Bayrūt Lubnān.
 11. al-shaykh al-Jurjānī, al-taḥrīf, Dār al-Kutub al-'ilmiyyah, Ṭ1, 1983, Bayrūt, Lubnān.
 12. Ṣiddīq Ḥasan Ibn Khān A, Maqāṣid al-Bayān fī tafsīr al-Qur'ān, al-Maktabah al-'ilmiyyah, Bayrūt, Lubnān, Ṭ1, 2001.
 13. 'Umar Ibn al-Muthannā Abū 'Ubaydah, mujāz al-Qur'ān, Maktabat al-Khānjī, Ṭ1, 1988, al-Qāhirah, Miṣr.
 14. Fakhr al-dīn al-rāzī, Maḥāṣin al-ghayb, Dār al-Fikr, Ṭ1, 1981, Bayrūt Lubnān.
 15. Majd al-dīn Ibn Ya'qūb al-Fayrūz Ābādī, al-Qāmūs al-muḥīṭ, ṭh Yūsuf Muḥammad al-bāqī, Dār al-Fikr, Ṭ1, 2003, Bayrūt Lubnān.
 16. Muḥammad Abū Ḥāmid al-Ghazālī, Iḥyā' 'ulūm al-dīn, Dār Ibn Ḥazm, Ṭ1, 2005, Bayrūt Lubnān.
 17. Muslim Ibn al-Ḥajjāj, Ṣaḥīḥ Muslim, Dār al-afkār al-dawliyyah, Ṭ1, 1998, al-risāl, al-sa'ūdīyah